الدولة أيضاً، فكبار رجال الادارة وقادة الجيش وضبّاطه وكبار موظفي الدولة الآخرين، هم في الغالب، أبناء الاقطاعي وحاشيته والمقربون منه، إنهم يحكمون الدولة بعقلية القرون الوسطى، ويديرونها في ظل حكم استبدادي يكره الحرية والتجديد والاصلاح ويعادي الديمقراطية»[٣]، وقد كان لهذا كله آثاره العميقة التي انعكست، فيما بعد، على التطورات السياسية في تلك البلدان، وعلى تطور قواها المنتجة، وبالتالي على تطور وعي القوى البشرية المنتجة لمصالحها الطبقية والسياسية.

وقد حمّل هذا الوضع، أيضاً، الشعوب الخاضعة للسيادة العثمانية أعباء جمّة زادت في أفقارها واستعبادها. هذا بالاضافة إلى الحروب الكثيرة والواسعة التي خاضتها الدولة العثمانية والتي تسببت في ارهاق موازنتها، وحطّمت قسماً كبيراً من اليد العاملة وزادت في أعباء الضرائب على المواطنين. مما أسهم، بالضرورة، في اخضاع الامبراطورية المترامية الأطراف «للدول الاستعمارية ورساميلها وقروضها و'مساعداتها'، التي حولّت الامبراطورية، فيما بعد، إلى دولة نصف مستعمرة ودفعتها إلى أتون الحرب العالمية الاولى»[٤].

بدايات تغلغل الامبرياليات الاوروبية في منطقة الشرق الأدنى

وقد ترافقت مرحلة تدهور الامبراطورية العثمانية، مع مرحلة انتقال الرأسمالية في اوروبا واميركا الشمالية من مرحلة التنافس الحر إلى أعلى مراحلها (الامبريالية)؛ حيث أصبح تصدير الرساميل هو الشكل الرئيسي الجديد لبسط النفوذ الامبريالي على العالم، ومن ضمنه الامبراطورية العثمانية. يشير لينين إلى أن رأس المال المالي هو «قوة كبرى، يمكننا أن نقول أنها فاصلة في جميع العلاقات الاقتصادية والدولية بحيث أن باستطاعتها أن تخضع لسلطانها، وهي تخضع في الواقع، حتى الدول التي تتمتع باستقلالها السياسي الناجز»[٥]. وهكذا أصبح تغلغل رأس المال الأجنبي بمختلف أشكاله: البنوك والقروض و«المساعدات» وغيرها، «السيد المطلق في البلاد [الدولة العثمانية] والقابض على زمام الاقتصاد كله»[٦] فيها.

وفيما يتعلق بمنطقة سوريا على وجه التحديد، فإن رأس المال الاوروبي (الفرنسي والالماني والبريطاني وجزئياً، البلجيكي)، قد توجه إلى بناء خطوط للسكك الحديدية. وقد كان خط سكة حديد برلين – بغداد، أخطر هذه الخطوط استراتيجياً. وقد حصل على امتيازه رأس المال المالي الالماني من الامبراطورية العثمانية في عام ١٩٠٣. ويربط هذا الخط برلين بالخليج العربي مروراً بتركيا، حلب، الموصل، بغداد، البصره. وهو بذلك يهدد المصالح الحيوية لكل من فرنسا وبريطانيا في المنطقة؛ إذ يسيطر على طريق انجلترا إلى الهند، وعلى قناة السويس. وقد كانت أهمية هذا الخط أحد أسباب زيارة فيلهلم الثاني إلى الامبراطورية العثمانية وفلسطين. وكتب لينين في مؤلفه: «الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» عن الدور الهام الذي تلعبه السكك الحديدية بالنسبة لتوظيف رؤوس الأموال والمشاريع، مشيراً إلى خط برلين – بغداد باعتباره من أكبر مشاريع سكك الحديد آنذاك وأهمها.